

سلامة الصدر

سلامة الصدر أحد أهم أسباب رضا الإنسان عن نفسه ورضا الله (عز وجل) عنه ، ذلك أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال لأصحابه يوماً : "يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" ، فدخل رجل فتبعه سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) ليقف على ما أوصله إلى هذه المكانة الرفيعة ، فنزل عليه ضيقاً ليرقب أعماله ومدى اجتهاده في عبادته ، فما وجد مزيد صلاة أو صيام أو صدقة ، فحدث ابن عمر (رضي الله عنهما) مضيفه عن سر نزوله عنده وأخبره بما كان في شأنه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسر نزوله عليه ، فقال يا ابن عمر : مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا ، وَلَا أَحْسَدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ " (مسند أحمد) .

وقد تتعدد الأمور بين بعض الأشخاص أو بعض القبائل بما يكون بينها أو بينهم من ثأر وخصومات ، حتى يظن أكثر المتفائلين أنه الطريق الذي لا رجوع عنه ، وينسون أو يتناسون أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا أراد أن يقلب أو يحول قلب عبده حوله ، وهو ما كان منه سبحانه حين ألف بين قلوب الأوس والخزرج على ما كان بينهم من ثارات متعددة ، وتاريخ طويل من الإحن والعداوة والبغضاء ، فقال سبحانه مخاطباً نبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) وممتناً عليه بتأليف القلوب على يديه : "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال: ٦٣) ، ويقول سبحانه حائثاً على الوحدة ممتناً على عبادته بتحقيقها لهم ، فقال سبحانه : "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (آل عمران: ١٠٣) .

وسلامة الصدر لا يمكن أن تبنى على التوجس والتربص والتحسس وسوء الظن ،
 حيث يقول الحق سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
 إِثْمٌ " (الحجرات: ١٢) ، كما لا يمكن أن تُبنى على عدم التسامح ، إنما تبنى على الصفح
 الجميل ، وحتى الهجر الجميل ، ولين الجانب ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، فالصفح الجميل :
 هو الذي لا مَنّْ معه ، حيث يقول الحق سبحانه : " فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ " (الحجر: ٨٥) ،
 والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه ، حيث يقول سبحانه وتعالى : " وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا " (المزمل: ١٠) .

وكذلك تبنى سلامة الصدر على لين الجانب ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا حبينا
 (صلى الله عليه وسلم) : " فِيمَا رَحِمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا
 مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " (آل عمران: ١٥٩) .

كما تقوم سلامة الصدر على العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة ، حيث يقول الحق
 سبحانه وتعالى : " وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي
 بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا
 ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " (فصلت: ٣٤، ٣٥) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " اتَّقِ اللَّهَ
 حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ " (سنن
 الترمذي) .

كما أن على الإنسان أن يدرك أن ثمة فرقًا واسعًا بين قلب يحمل العداوة والبغضاء ،
 وقلب يحمل الحب والتسامح مع الناس جميعًا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم)
 : " لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ : فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ،
 وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ " (صحيح البخاري) .

مع التأكيد على أن سلامة الصدر ترتبط غاية الارتباط بالرضا بما قسم الله ، وإدراك الإنسان أن الأمر كله بيد الله (عز وجل) وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (يس: ٨٢)، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " وَاعْلَمَنَّ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " (سنن الترمذي) .

على أن هناك أمورًا قد تعين على تحقيق سلامة الصدر ، فعدل الأب بين أبنائه يورثهم سلامة الصدر بعضهم تجاه بعض ، وعدل المعلم تجاه طلابه يورثهم سلامة الصدر بعضهم تجاه بعض ، وعدل المسئول بين مرءوسيه وصاحب العمل تجاه عماله يورثهم سلامة الصدر ، والإحسان يورث سلامة الصدر ، وقد قالوا : أحسن إلى من شئت تكن أميره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

ومن الأمور التي تعين على سلامة الصدر الكلمة الحلوة الرقيقة والقول الحسن " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " (البقرة: ٨٣)، وإفشاء السلام "أفشوا السلام بينكم تحابوا" (الجامع لابن وهب) ، وإطعام الطعام ، وإكرام الصغير ، وقد قالوا : أكرم صغير القوم يكرمك كبيرهم وينشأ على محبتك صغيرهم ، ومما يورث سلامة الصدر: التواضع والبعد عن الكبر والاستعلاء على الناس ، ومن أهم ما يورث سلامة الصدر ويؤلف بين القلوب احترام إنسانية الإنسان وأدميته ، وعدم إحراجه أو تنقيصه ، بل العمل على رفع الحرج وإزالته عنه ، والتماس الأعذار له ، وقد قالوا : التمس لأخيك عذرًا إلى سبعين عذرًا ، فإن لم تجد له عذرًا فقل : لعله كذا ، لعله كذا ، فخير الناس أعذرهم للناس ، وأسلمهم صدرًا وأرضاهم نفسًا .